

قصة إتلاف كتابي

منذر مصري

قد تبدو وكأنها قصة قديمة، ولكنها بالنسبة إليّ لن تكون يوماً كذلك.

الكتاب يُعرف من عنوانه

كان داكن هو عنوان مجموعتي الشعرية الخاصة الثانية، التي تقدّمتُ بها إلى وزارة الثقافة. ومنذ البداية، كانت هناك ملاحظات غير مباشرة تنم عن عدم ارتياحهم للعنوان. فالوزارة السورية هيئة رسمية، وليس من المفترض أن تُطبع كتباً لها هذا النوع من العناوين. وبحسب معرفتي المحدودة، فإن فراس سليمان عندما تقدّم إليها بمجموعته أحزان مشبوهة طلبوا منه أن يبدّل العنوان، وفعلاً صدرت المجموعة عن الوزارة ولكن بعنوان رصيف، علماً بأنّها كانت قد رُفضت سابقاً من قِبل اتحاد الكتاب، وبتقرير أتيح لي أن أقرأه، يكيل لصاحبها اتهامات، لو كانت صحيحة، لكان فراس أهمّ شاعر عربيّ حيّ، ولكنّه يستحقّ الشنق من دون محاكمة في الوقت ذاته! وقد وسّع التقرير نطاق اتهاماته، فوجّه إليّ، أنا مقدّم المجموعة، أفضعها. فأنا أذكر أنّ التقرير في بداية إشارته إليّ يقول: «وهناك مخلوق آخر كتّب له المقدمة...» أيّ أنّه لم يستطع تحديداً أيّ نوع من خلائق الله أنا، بعد أن رُفضَ اعتباري بشراً كما يبدو. ولكن، بالنسبة إليّ، لم يكن تبديلاً عنوان داكن ممكناً، إذ إنّ كلّ ما جمعه من قصائد تنضوي تحته. إضافةً إلى أنني كنت قد قدّمتُ للمجموعة بثمان وأربعين صفحة تدور كلّها حول من .. ماذا .. كيف .. داكن؟

أحد شعراء وزارة الثقافة، أنا!

أعترف بأنّي إذا عُرفتُ شاعراً فإنّ لوزارة الثقافة السورية وللعاملين بها دوراً في هذا. فكتابي الأول بشر وتواريخ وأمّكنة صدر عنها عام ١٩٧٩؛ والمجموعة المشتركة التي أعدتها من شعر أختي مرام مصري وصديقي محمد سيده، وعنوانها أنذرتك بحمامة بيضاء، صدرت أيضاً عن الوزارة عام ١٩٨٤. وبدا أنّ كلّ ما سوف أتقدّم به سوف توافق عليه وتُنشره. فلقد كنتُ، على نحو ما، محسوباً عليها، أسوةً بالعديد من الشعراء والقاصّين والمثقفين اليساريين - بالمفهوم الواسع للكلمة - الذين ساهمت الوزارة في نشر أعمالهم، وقامت بتوظيف عددٍ لا بأس به منهم، مثل حنا مينة والراجلين سعيد حورانيّة وسعيد مراد وسعد الله ونوس، وكذلك ميشيل كيلو ومحمد كامل الخطيب، وحتى نزيه أبو غفّش، وغيرهم الكثيرون. حتى إنّّه عندما وقّع المثقفون السوريون على بيان يحتجون فيه على مشاركة القوات السورية في الائتلاف الدولي في الحرب ضدّ العراق، اتّصل وزير الإعلام حينها السيّد محمد سلمان بالوزارة هاتفياً وقال لها: «لمّي كلابك!» وقد أخبرني صديقي بذلك.

الجنسية أو غير الجنسية، مؤشراً تحته بخطاً. فمثلاً كانت هناك خطوط تحت: «شعبان أسود قصير»، و«عتمة ما بين فخذيهما»، و«بساقين ذابلتين وشهوة فجّة»، و«ما أَعُوم به من رغبة دبقة»، و«ليتضاجعوا سرّاً»، وتقريباً تحت كلّ سطور القصائد الثلاث التي تشكّل «ساقا الشهوة» على نحو يبدو معه وكأنهم أوصوا مَنْ كلفوه بمراجعة الكتاب بأن ينظر إلى النصوص نظرة مهووس جنسي!

كانت الإشارات، إذن، تطول الجزء الأكبر من المجموعة. ومع ذلك أعددت دفاعاً تكتيكياً يائساً لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فعدلتُ بعض التعابير فقلتُ مثلاً: «ليتلمسوا سرّاً» بدلاً من «ليتضاجعوا سرّاً»، وحذفتُ بعض الأوصاف. وفي المقابل أصرتُ على بعض الأشياء، وشرحتُ أنّها لا يمكن أن تُعني شيئاً جنسياً لأي إنسان. وبعد أن بينتُ مرامي قصيدة «ساقا الشهوة» وقلتُ إنّ حذفها يُشبه عملية خُصّي للكتاب، قبلتُ بالحذف. وحتى العنوان الذي أكّدتُ عليه، وذكّرتُ في قرار الموافقة، قبلتُ أن أبدله بعنوان آخر يعبر عن سقمي من كلّ هذا، واقترحتُ: سمّه ما شئتُ.

حُكْم مُبرم غير قابل للطعن

كان واضحاً لي أنّ الحُكْم قد صدَرَ: قاطعاً، ومبرماً، وغير قابل للطعن ولا التخفيف. ولكنّ كان عليّ أن ألعب دوري كضحية حتى النهاية. فالحقيقة أنّه لا يُمكن التعديل أو الحذف في كتاب طُبع وأنجز بالكامل، فما بالك بكلمة هنا وكلمة هناك وفقرات وقصائد؟ وما بالك بغلافٍ لا بدّ من تغييره هو أيضاً في حال تغيير العنوان؟! قال لي الأستاذ أنطون إنّه ليس من الجيد حذف أي شيء من المجموعة، وإنّ من الأفضل لي أن أطلبه كاملاً في مكان آخر. ووعدني بإعطائي نسخة مطبوعة من الكتاب. أمّا محمد كامل الخطيب فقد كان إيجابياً بالمقارنة مع موقف الأستاذ أنطون، الذي لم أشعر أنّ لديه أي رغبة ظاهرة أو خفية في مسانديتي، لا كمنذر مصري بالذات، بل كحالة تعبّر كثيراً أو قليلاً عن قضية إبداعية وحضارية. لقد كان محمد مستناراً كما لم أعهدُه من قبل، وأخبرني أنّ منَعَ الكتاب بعد قرار الموافقة عليه وطبعه لا سابقة له، وإنّه مستعدّ لتحمل كامل المسؤولية الأدبية والقانونية في حال صدوره واعتراض أحدٍ عليه.

لكنّ الكتاب كان قد صار، وبالسّعة التي تمت الموافقة عليه وعلى طبعه، شيئاً من الماضي. حتّى النسخة المطبوعة التي طالبتُ بها، بناءً على وعد الأستاذ أنطون مقدسي، لم تعط لي. بل أرسل لي السيّد زهير الحموي المدير والمُشرف الفني لمطبعة وزارة الثقافة، رسالة يشرح فيها أنّ كلّ نسخ الكتاب قد أُتلفت، كما أذيت كلّ السبائك الرصاصية. وقال إنّه يأسف لما حصل.

وقد فهمتُ أسفه في بادئ الأمر على أنّه أسفٌ على ما حدّث للكتاب؛ فقد كنتُ أشعر بمودة بيننا نتجت من زيارتي المطبوعة العديد من المرات أثناء إعدادي لأغلفة كتبي. ولكنّي عرفتُ بعدها، أولاً بواسطة الأصدقاء كالعامة، ثم راح يُذكر مراراً في الصحافة السورية (الدومري، العدد ٨، مثلاً)، أنّ السيّد زوجة مدير المطبعة، وكانت تُعمل بمثابة سكرتيرة للسيّدة الوزيرة، قد أخذت على عاتقها، حرصاً على الأخلاق والآداب العامة، وحرصاً على مصلحة السيّدّة الوزيرة في أن معاً، أن تأخذ الكتاب إلى الوزيرة وتُطلعها على قصيدة «ساقا الشهوة» الملعونة.

النجاح أفضل انتقام

على أثر هذا أرسل لي حنّاً مينة - وأنا أدكر اسمَه كما اعتدتُ بلا أي لقب، حبّاً له - رسالة يقول لي فيها الأبا لي: «فمجموعتكُ الشعرية تلقى إعجاباً طيباً من قبل جميع الأصدقاء والقراء. ولكنّ مديرية التأليف والترجمة متمسكة بما يُسمّى تحريم الجنس في مطبوعاتها؛ وهذا عجيب. حدث [ذلك] مع روايتي الباطر، سواء في الوزارة أو الاتحاد. لكنّ الرواية نُشرت بعدئذ في دار ميسلون وبموافقة وزارة الإعلام... أي أنّ الحَجَرَ الذي رفضه البناؤون صار رأس الزاوية. فتأمّل.»

انتقامًا لقصيدة «ساقا الشهوة»، كتبتُ لها مقدمةً أشدَّ طولاً من مقدّمة المجموعة بأكملها، وطبعتها باسم صرتُ أعرفُ به (منذريوس مصريام) على الآلة الكاتبة مع القصيدة على شكل كراسٍ صغير، أعددتُ منه ٥٠٠ نسخة ورعتها على الأصدقاء، ثم نشرتها في مجلة الناقد العدد ٤٣. لكن الرقابة مرقتُ صفحتي القصيدة ١٦ و ١٧، ولا أدري لماذا شعرتُ بالسعادة عندما أخبرني صديقٌ بذلك! بعد ذلك ضمنتُها مجموعتي التي صدرتُ عن دار رياض الرئيس للكتب والنشر، مزهريّة على هيئة قبضة يد، فسُوح للمجموعة بأن تباع وتداول في سوريا، من دون اعتراضٍ من أحد.

ولكن..

ليست سوريا البلد الذي يُمنع الكتب! فكُتِبُ الصادق النيهوم، التي مُنعتُ في بلد الحرّيات لبنان، سُوح بطبعها وطُبعتُ ووزعتُ في سوريا. ولكن لا أحد يدري عدد الكتب التي لم تُطبع في سوريا بسبب رقابة إحدى الجهات المخولة، وأغني الإعلام والثقافة أو اتحاد الكتاب العرب. ذلك أنّ قرارات كهذه لا يلزمها دائماً أن تُصدر بكتاب ذي رقم وتاريخ، بل تكفي كلمة ما، أو مكالمة هاتفية، أو إبداء تحفظ. ولكن كيف يبرر - إذا كان هذا أمراً يَحْتَاج إلى تبرير - صرفُ مكافأة لكتاب لم يُنشر، ولم تُستعد لأنّ العقد لا ينصّ على هذا الحق؟ وكيف يُمكن تبرير ما أنفق على طباعة ٢٠٠٠ نسخة، وهي كلفة قد تُبلّغ عشرات الآلاف من الليرات السوريّة؟

لقد شكّل منع دأكن أدبيّة حقيقية لبرنامجي في نشر مجموعاتي على نحو متسلسل، ولتجربتي برمتها. وها أنذا، بعد ثلاثة عقود من الكتابة، ليس لديّ سوى كتابين وثلاث، كما يَمزح البعض. ولكن هذا لا شيء مقارنةً بشعراء عرفتهم، بعضهم أفضل مني، كانوا يستطيعون أن يقدّموا وجهاً رائعاً للشعر السوري، غير أنهم حين تَقَدّموا بأعمالهم إلى وزارة الثقافة وإلى اتحاد الكتاب لم تُعَد الأسباب لرفض نشرها.

اللاذقية

منذر مصري

شاعر سوري. له عدد من الدواوين. منها: بشر وتواريخ وأمكنة، ودأكن (طبعته وزارة الثقافة السوريّة ثم أُكُتِف)، ومزهريّة على هيئة قبضة يد. أقام معارض فردية عديدة، وتشارك في معارض وتظاهرات تشكيليّة جماعيّة.